تفسير سورةُ الحج
من آية (14) إلى آية (24)
اللقاء الثالث

المعنى الإجمالي من آية (5) إلى آية (13):

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها النَّاسُ، إنْ كُنتُم في شَكٍّ مِن أنَّ اللهَ يُحيي الموتى، فإنَّا خلَقْنا أباكم آدَمَ مِن تُرابٍ، ثمَّ تناسَلَت ذُرِّيَّتُه مِن مَنِيٍّ، فيتحَوَّلُ بقُدرةِ اللهِ إلى عَلَقةٍ، وهي قِطعةُ دَمٍ حمراءُ جامِدةٌ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ، ثمَّ إلى مُضغةٍ -وهي قِطعةُ لَحمٍ صَغيرةٌ قَدْرَ ما يُمضَغُ-، مخلَّقةٍ وغَيرِ مُخلَّقةٍ؛ لنبيِّنَ لكم تَمامَ قُدرَتِنا. ونُبقي في الأرحامِ ما نشاءُ مِن الأجنَّةِ إلى وَقتِ ولادتِه، ثم نخرِجُكم مِن بطونِ أمَّهاتِكم أطفالًا صِغارًا، ثم تَكبَرُون حتى تَبلُغوا الأشُدَّ، وهو وَقتُ اكتِمالِ القُوَّةِ والعَقلِ، ومِنكم مَن يَموتُ قبْلَ ذلك، ومِنكم مَن يَكبَرُ حتى يبلُغَ سِنَّ الهَرَمِ وضَعْفِ العَقلِ، فلا يعلَمُ هذا المعمَّرُ شَيئًا مِمَّا كان يَعلَمُه قبْلَ ذلك!

وترى الأرضَ يابِسةً مَيْتةً لا نباتَ فيها، فإذا أنزَلْنا عليها الماءَ تحرَّكَت بالنَّباتِ وارتفَعَت وانتفَخَت، وأنبَتَت مِن كلِّ نَوعٍ مِن أنواعِ النَّباتِ الحَسَنِ الذي يَسُرُّ النَّاظِرينَ.

ذلك المذكورُ مِمَّا تقدَّمَ مِن آياتِ قُدرةِ اللهِ تعالى؛ لِتَعلَموا أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى هو الحقُّ، الذي لا تَنبغي العبادةُ إلَّا له، وأنَّه يُحيي الموتى، وهو قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ.

يقولُ الله تعالى: ومِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ رُسُلَ اللهِ وأتباعَهم في شأنِ اللهِ تعالى بغيرِ عِلمٍ ولا دَلالةٍ صَحيحةٍ، ولا كتابٍ مِن اللهِ فيه بُرهانٌ وحُجَّةٌ واضِحةٌ، لاويًا جانِبَه وعُنُقَه، متكبِّرًا مُعرِضًا عن الحَقِّ؛ لِيَصُدَّ عن دينِ اللهِ، فله خِزيٌ في الدُّنيا وذِلَّةٌ، ونذيقُه يومَ القيامةِ عذابَ النَّارِ. ويُقالُ له: ذلك العَذابُ بسَبَبِ ما فَعَلْتَ مِنَ المعاصي، واكتسَبْتَ مِنَ الآثامِ، واللهُ ليس بظلَّامٍ للعبيدِ، فلا يعَذِّبُ أحَدًا بغيرِ ذَنبٍ.

يقولُ تعالى: ومِنَ النَّاسِ مَن يَعبدُ الله على شَكٍّ وتَرَدُّدٍ، فإنْ أصابه خيرٌ مِن صِحَّةٍ وسَعَةٍ وغَيرِهما، استمَرَّ على عبادتِه، وإنْ حصَلَ له ابتِلاءٌ بمَكروهٍ وشِدَّةٍ، رجَعَ عن دينِه، فهو بذلك قد خَسِرَ الدُّنيا؛ إذ لم يَظفَرْ بحاجَتِه منها، وحُرِمَ الطُّمأنينةَ ومُوالاةَ المسلِمينَ، وخَسِرَ الآخِرةَ بدُخولِه النَّارَ، وذلك خُسرانٌ بيِّنٌ واضِحٌ.

يَدْعو ذلك المرتَدُّ آلِهةً مِن دُونِ اللهِ لا تضُرُّه ولا تنفَعُه، ذلك هو الضَّلالُ البَعيدُ عن الحَقِّ. يدعو مَن ضَرَرُه المحقَّقُ أقرَبُ مِن نَفْعِه، قَبُحَ ذلك المعبودُ نَصيرًا، وقَبُحَ عَشيرًا ومُصاحِبًا!

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾﴿14﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها: قال السعدي: وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى المجادِلَ بالباطِلِ، وأنَّه على قِسمَينِ: مُقلِّد، وداعٍ؛ ذَكَر أنَّ المتسمِّيَ بالإيمانِ أيضًا على قِسمَينِ: قِسْمٌ لم يَدخُلِ الإيمانُ قلبَه. والقِسمُ الثاني: المؤمِنُ حقيقةً، وهو الذي صدَّق ما معه من الإيمانِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، فأخْبَرَ تعالى أنَّه يُدخِلُ أصحابَ هذا القسمِ جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ.

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أي: إنَّ اللهَ يُدخِلُ يومَ القيامةِ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ- جَناتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها. موسوعة التفسير

(جَنَّاتٍ) أي: بساتين، فيها أشجار كثيرة.

(إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) أي: إنَّ اللهَ يَفعَلُ كُلَّ ما يُريدُ فِعلَه مِن نَفعٍ أو ضُرٍّ دونَ مُمانِعٍ، ويَحكُمُ في خَلقِه في الدُّنيا والآخرةِ بما يَشاءُ، ومِن ذلك إيصالُ أهلِ الجَنَّةِ إليها. موسوعة التفسير

الإرادةُ في هذه الآيةِ هي إرادةٌ كونيَّةٌ -وهي التي بمعنى المشيئةِ-، ويُقابِلُها الإرادةُ الشَّرعيَّةُ -وهي التي بمعنى المحبَّةِ-، كما في قَولِه تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ) [البقرة: 185]

إن من آمن بالحياة الباقية، وعمل للآجلة، وجعل غايته الدار الآخرة، ولم يستعجل اللذة العابرة، والشهوة الزائلة، ولا اغتر بالحياة الفانية؛ فإن جزاءه جنة عرضها السماء والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم، ينعمون فيها فلا يأسون، ويصحون فلا يمرضون، ويخلدون فلا يموتون.

والكلام عن الجنة وما فيها من النعيم تطرب له قلوب المؤمنين، وتشتاق له أسماع الموقنين، فيشمرون عن سواعد الجد والعمل في الباقيات الصالحات؛ لتحصيل أعلى المنازل والدرجات (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) [القمر:55].

ومن النعيم الذي يتنعم به أهل الجنة: الأنهار التي تجري فيها، والعيون التي تتفجر في جوانبها ، إن أثمن أماكن الأرض وأجملها ما كان على حافة نهر، أو نبعت فيه عين، وأغلى المنتجعات ما كان على شواطئ البحار وحواف الأنهار؛ لأسر منظرها، وجمال مشهدها، وطيب هوائها، وراحة النفس فيها، إن الله تعالى هو خالق البشر، وهو -سبحانه- يعلم جبلتهم في تمتعهم برؤية الماء وجريانه؛ ولذا وعدهم على إيمانهم وعملهم الصالح جنات تجري من تحتها الأنهار في نحوٍ من أربعين موضعًا في القرآن الكريم، (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)[البقرة:25]، (لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)[الزمر:20]،(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)[القمر:54].

والأصل أن الأنهار تجري بالماء، لكن الجنة فيها أنهار أخرى على غير ما عهد البشر وعرفوا، وهي المذكورة في قول الله تعالى: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى)[محمد:15].

وثبت في الصحيح أن أنهار الجنة تتفجر أعلاها من الفردوس الأعلى من الجنة، وتنحدر إلى باقي درجاتها وجناتها؛ كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: " إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّها اللَّهُ لِلْمُجاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ما بيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كما بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، فإذا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فإنَّه أوْسَطُ الجَنَّةِ وأَعْلَى الجَنَّةِ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أنْهارُ الجَنَّةِ ". (رواه البخاري).

إن في الجنة عيونًا كثيرةً تتفجر لأهلها، فينعمون بها، ويشربون منها كما قال الله -تعالى-: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)[الحجر: 45]، وفي آية أخرى قال -سبحانه-: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ)[المرسلات: 41]. (إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً)[الإنسان:5، 6]، أي: يفجرونها حيث كانوا ومتى شاؤوا في أي مكان أرادوا من الجنة، في قصورهم ودورهم داخلها وخارجها.

قال -سبحانه-: (وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ)[المطففين:27-28]، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "تسنيم أشرف شراب أهل الجنة، وهو صرف للمقربين، ويمزج لأصحاب اليمين".

فمن مزج بين العمل الصالح والطالح مزج شرابه، ومن صفى عمله ونقاه واتقى الله كان له صرفا صافياً، لأنهم حققوا الإيمان وأتبعوه بالعمل الصالح، وجانَبوا المحرمات، وسابقوا في الخيرات، ونافسوا في الباقيات الصالحات، وكلما كان العبد أكثر إيمانًا وعملاً كان فوزه في الجنة أكبر، وملكه أعظم: (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً)[الإنسان: 20]

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾﴿15﴾

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ) أي: مَن كان يَظُنُّ أنَّ اللهَ ليس بناصرٍ رَسولَه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدُّنيا والآخرةِ، فلْيُعَلِّقْ حَبلًا في سقفِ بيتِه، ويَشُدَّه في عُنُقِه. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي المرادُ: الكافرُ الحاسدُ. قال ابنُ جرير: المرادُ مَن يعبدُ الله على حَرفٍ.

قال الشنقيطي: (وحاصِلُ هذا القَولِ: أنَّ اللهَ يَقولُ لحاسِدِيه صلَّى الله عليه وسلَّم، الذين يَتربَّصون به الدَّوائِرَ، ويَظُنُّونَ أنَّ رَبَّه لن يَنصُرَه: موتوا بغَيظِكم؛ فهو ناصِرُه لا محالةَ على رَغمِ أُنوفِكم).

كما قال تعالى: (وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ) [آل عمران: 119].

وقال سُبحانَه: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) [التوبة: 33].

(ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ) أي: ثُمَّ لْيَختَنِقْ بالحَبلِ، فلْيَنظُرْ حينَها: هل يُذهِبَنَّ صَنيعُه هذا ما يَغيظُه؟! كلَّا، لا يُغْني ذلك عنه شيئًا، وإنما يقَعُ ضَرَرُ كَيدِه على نفْسِه، واللهُ مُتِمُّ نُورِه، وناصرٌ نبيَّه. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله، وأن دينه سيضمحل، فإن النصر من الله ينزل من السماء (فَلْيَمْدُدْ) ذلك الظان (بِسَبَبٍ) أي: حبل (إِلَى السَّمَاءِ) وليرقى إليها (ثُمَّ لِيَقْطَعْ) النصر النازل عليه من السماء. (فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ) أي: ما يكيد به الرسول، ويعمله من محاربته، والحرص على إبطال دينه، ما يغيظه من ظهور دينه، وهذا استفهام بمعنى النفي وأنه، لا يقدر على شفاء غيظه بما يعمله من الأسباب.

قال السعدي: هذه الآيةُ الكَريمةُ فيها مِنَ الوَعدِ والبِشارةِ بنَصرِ اللهِ لدِينِه ولِرَسولِه وعبادِه المؤمِنينَ ما لا يَخفَى، ومِن تَأييسِ الكافرينَ الذين يُريدونَ أن يُطفِئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم، واللهُ مُتِمُّ نُورِه، ولو كَرِهَ الكافِرونَ.

ومعنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد -ﷺ-، الساعي في إطفاء دينه، الذي يظن بجهله، أن سعيه سيفيده شيئا، اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول، فإن ذلك لا يذهب غيظك، ولا يشفي كمدك، فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأي، تتمكن به من شفاء غيظك، ومن قطع النصر عن الرسول -إن كان ممكنا- ائت الأمر مع بابه، وارتق إليه بأسبابه، اعمد إلى حبل من ليف أو غيره، ثم علقه في السماء، ثم اصعد به حتى تصل إلى الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدها وأغلقها واقطعها، فبهذه الحال تشفي غيظك، فهذا هو الرأي: والمكيدة، وأما ما سوى هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق. "أبو الهيثم محمد درويش".

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾﴿16﴾

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) أي: وكما بَيَّنَّا لكم الآياتِ السَّابِقةَ وأوضَحْناها، كذلك أنزَلْنا القُرآنَ كُلَّه آياتٍ واضِحاتِ الدَّلالةِ. موسوعة التفسير

(وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ) أي: ولأنَّ اللهَ يَهدي بهذا القُرآنِ إلى الحَقِّ مَن يريدُ هِدايَتَه، أنزَلَه آياتٍ بَيِّناتٍ. موسوعة التفسير

وقال السعديُّ: (أي: وكذلك لَمَّا فصَّلْنا في هذا القُرآنِ ما فصَّلْنا، جعَلْناه آياتٍ بيِّناتٍ واضِحاتٍ دالَّاتٍ على جميعِ المطالِبِ والمسائِلِ النَّافِعةِ، ولكِنَّ الهدايةَ بيَدِ اللهِ؛ فمَن أراد اللهُ هدايتَه اهتدَى بهذا القُرآنِ، وجعَله إمامًا له وقُدوةً، واستضاء بنُورِه، ومَن لم يُرِدِ اللهُ هدايتَه فلو جاءته كلُّ آيةٍ ما آمَن، ولم يَنفَعْه القُرآنُ شَيئًا، بل يكونُ حُجَّةً عليه).

كما قال تعالى: (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) [آل عمران: 103].

وقال عزَّ وجلَّ: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [المائدة: 15، 16].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾﴿17﴾

قال ابن عاشور: وأيضًا لَمَّا اشتَمَلت الآياتُ السَّابِقةُ على بيانِ أحوالِ المتردِّدينَ في قَبولِ الإسلامِ، كان ذلك مَثارًا لأنْ يُتساءَلَ عن أحوالِ الفِرَقِ بَعضِهم مع بَعضٍ في مُختَلفِ الأديانِ، وأن يُسألَ عن الدِّينِ الحَقِّ؛ لأنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تَدَّعي أنَّها على الحَقِّ وغيرَها على الباطِلِ، وتجادِلُ في ذلك، فبَيَّنَت هذه الآيةُ أنَّ الفَصلَ بينَ أهلِ الأديانِ فيما اختَصَموا فيه يكونُ يومَ القيامةِ؛ إذ لم تُفِدْهمُ الحُجَجُ في الدُّنيا

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي: إنَّ المؤمِنينَ باللهِ ورُسُلِه، واليَهودَ، والصَّابِئينَ، والنَّصارى، والمجوسَ، والمشرِكينَ باللهِ- إنَّ اللهَ يَحكُمُ بينهم يومَ القيامةِ، ويُجازي كُلًّا بعَمَلِه؛ فيُدخِلُ المؤمِنينَ منهم الجَنَّةَ، ويُدخِلُ الكافرينَ النَّارَ.

موسوعة التفسير

الصابئةُ أمَّةٌ قديمةٌ قبلَ اليهودِ والنَّصارَى، وهم نوعان: صابئةٌ حنفاءُ موحِّدون، اتَّبعوا مِلَّةَ إبراهيمَ، وصابئةٌ مشركون.

المجوس: هم عبدةُ النيرانِ، القائلون: إنَّ للعالَمِ أصلينِ: النُّور والظُّلمة. وقيل: هم قومٌ عبَدوا الشَّمسَ والقمرَ. وقيل: هم الثنويةُ الذين يؤمنون بوجودِ إلهينِ؛ أحدُهما للخيرِ، والآخرُ للشرِّ. الدرر السنية

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أي: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ مِن أعمالِ هؤلاء الأصنافِ، وغَيرِ ذلك مِن الأشياءِ كُلِّها- شَهيدٌ لا يخفى عليه شَيءٌ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) [آل عمران: 5].

فذكَرَ المللَ الستَّ هنا؛ ليبينَ أنَّه يفصلُ بينَهم يومَ القيامةِ، أما في سورة (البقرةِ) و(المائدةِ) فذكَرَ أربعةَ أصنافٍ: المسلمينَ، والذين هادُوا، والنَّصارى، والصَّابئِينَ، ثمَّ قال: مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ البقرة: 62؛ فدَلَّ على أنَّ هذه الأربعةَ منهم مَن آمَنَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالحًا، وأولئك هم السُّعَداءُ في الآخرةِ، بخلافِ مَن لم يكُنْ مِن هؤلاء مؤمِنًا باللهِ واليومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالحًا، وبخلافِ مَن كان مِن المجوسِ والمشرِكينَ؛ فهؤلاء كلُّهم لم يُذكَرْ منهم سعيدٌ في الآخرةِ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾﴿18﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها: قال المراغي: بعد أن أبان اللهُ عزَّ وجلَّ فيما سلف أنَّه يَقضي بين أربابِ الفِرَقِ السَّالفةِ يومَ القيامةِ، وهو شهيدٌ على أقوالِهم وأفعالِهم- أردَفَ هذا ببيانِ أنَّه ما كان ينبغي لهم أن يختَلِفوا، ألَا يَرَوْنَ أنَّ جميعَ العوالِمِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ: كبيرَها وصغيرَها، شمسَها وقمَرَها ونجومَها، وجبالَها وحيوانَها ونباتَها- خاضِعةٌ لجَبَروته، مُسخَّرةٌ لقُدرتِه؟!

وقال ابن عاشور: وأيضًا فهي مرتبطةٌ بمعنى قَولِه: يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ إلى قوله: لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ الحج: ١٢، ١٣ ارتباطَ الدَّليلِ بالمطلوبِ؛ فإنَّ دلائلَ أحوالِ المخلوقاتِ كُلِّها -عاقِلِها وجمادِها- شاهدةٌ بتفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ، وفي تلك الدَّلالةِ شَهادةٌ على بطلانِ دعوةِ مَن يدعو مِن دونِ اللهِ ما لا يضُرُّه وما لا ينفَعُه.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ) أي: ألم تعلَمْ أنَّ اللهَ يَسجُدُ له مَن في السَّمواتِ مِن الملائكةِ، ومَن في الأرضِ مِن الخلقِ مِن الجنِّ وغيرِهم، والشَّمسُ والقَمَرُ والنُّجومُ في السَّماءِ، والجِبالُ والشَّجَرُ والدوابُّ في الأرضِ.

موسوعة التفسير

والاستفهامُ في قولِه: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ استفهامٌ إنكاريٌّ، والخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والاستفهامُ تَقريريًّا. والمرادُ بالرُّؤيةِ العِلْمُ؛ عبَّرَ عنه بها إشعارًا بظُهورِ المعلومِ.

الدرر السنية

قال الزجاج: المرادُ بسُجودِها: خُضوعُها وذِلَّتُها وانقيادُها لخالِقِها فيما يريدُ منها.

كما قال تعالى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) [الرعد: 15].

وقال عزَّ وجلَّ: (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) [الرحمن: 6].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النبيُّ -ﷺ- لأبي ذَرٍّ حينَ غَرَبتِ الشَّمسُ: ((أتدري أين تذهَبُ؟ قُلتُ: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: فإنَّها تذهَبُ حتى تسجُدَ تحتَ العَرشِ، فتَستأذِنُ، فيُؤْذَنُ لها، ويُوشِكُ أن تَسجُدَ فلا يُقبَلُ منها، وتَستأذِنُ فلا يُؤْذَنُ لها، يُقالُ لها: ارجِعي مِن حَيثُ جِئْتِ، فتَطلُعُ مِن مَغرِبِها، فذلك قولُه تعالى: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [يس: 38])) رواه البخاري.

قال السعدي: فإذا كانت المخلوقاتُ كُلُّها ساجِدةً لِرَبِّها، خاضِعةً لِعَظَمتِه، مُستكينةً لعِزَّتِه، عانيةً لِسُلطانِه؛ دَلَّ على أنَّه وَحْدَه الرَّبُّ المعبودُ، والمِلكُ المحمودُ، وأنَّ مَن عَدَلَ عنه إلى عبادةِ سِواه، فقد ضَلَّ ضَلالًا بعيدًا، وخَسِرَ خُسرانًا مُبينًا.

(وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) أي: وكثيرٌ مِن النَّاسِ -وهم المؤمِنونَ- يَسجُدونَ لله طَوعًا مُختارينَ عابدِينَ. موسوعة التفسير

(وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) ي: وكثيرٌ مِن النَّاسِ -وهم الكافِرونَ- وَجَب عليهم عذابُ اللهِ؛ لامتِناعِهم عن السُّجودِ للهِ عن طواعِيَةٍ واختيارٍ. موسوعة التفسير

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ) أي: ومَن يُهِنْهُ اللهُ فلا يَقدِرُ أحَدٌ أن يُكرِمَه. موسوعة التفسير

(إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) أي: وذلك لأنَّ اللهَ يَفعَلُ في خَلْقِه ما يَشاءُ، فيُسعِدُ ويُكرِمُ مَن يشاءُ، ويُشقي ويُهينُ مَن يَشاءُ؛ فالخَلقُ خَلقُه، والأمرُ أمرُه. موسوعة التفسير

قال -ﷺ- :"إنَّ اللهَ لو عذَّبَ أهلَ سمواتِه وأهلَ أرضِه لعذَّبَهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رحِمَهم كانتْ رحمتُهُ خيرًا لهم مِن أعمالِهم". صحيح أبي داود

قال ابن القيم: فرأيتُ الجماداتِ كُلَّها قد وُصِفَت بالسجودِ، واستثنى مِن العقلاءِ، فذكرتُ قَولَ بَعضِهم: ما جحَد الصامتُ مَن أنشَأه ومِن ذَوي النُّطقِ أتَى الجُحودُ، فقلتُ: إنَّ هذه لقدرةٌ عظيمةٌ؛ يوهَبُ عَقلٌ للشَّخصِ، ثمَّ تُسلَبُ فائدتُه! وإنَّ هذا لأقوى دليلٍ على قادرٍ قاهرٍ، وإلَّا فكيف يَحسُنُ من عاقلٍ ألَّا يعرِفَ بوجودِه وجودَ مَن أوجدَه؟! وكيف يَنحِتُ صنمًا بيدِه ثم يَعبُدُه؟! غيرَ أنَّ الحقَّ سُبحانَه وتعالى وهَب لأقوامٍ مِن العقلِ ما يُثبِتُ عليهم الحُجَّةَ، وأعمَى قلوبَهم كما شاء عن المحجَّةِ).

قال ابن القيم: قاعِدةٌ شَريفةٌ: النَّاسُ قِسمانِ: عِليَةٌ وسَفِلةٌ؛ فالعِلْيةُ: مَن عرَفَ الطَّريقَ إلى رَبِّه وسَلَكها قاصِدًا الوُصولَ إليه، وهذا هو الكريمُ على رَبِّه. والسَّفِلَةُ: مَن لم يَعرِفِ الطَّريقَ إلى رَبِّه، ولم يتعَرَّفْها، فهذا هو اللَّئيمُ الذي قال الله تعالى فيه: وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ.

قال ابن تيمية: الإهانةُ إذلالٌ وتَحقيرٌ وخِزيٌ، وذلك قَدْرٌ زائِدٌ على ألَمِ العَذابِ؛ فقد يُعَذَّبُ الرَّجُلُ الكريمُ ولا يُهانُ.

قال ابن القيم: المعصيةُ سَبَبٌ لِهَوانِ العَبدِ على رَبِّه، وسُقوطِه مِن عَينِه؛ قال الحَسَنُ البَصريُّ: (هانُوا عليه فعَصَوه، ولو عَزُّوا عليه لعَصَمَهم!)، وإذا هان العبدُ على اللهِ لم يُكرِمْه أحدٌ، كما قال الله تعالى: وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ، وإنْ عَظَّمَهم النَّاسُ في الظَّاهِرِ؛ لحاجَتِهم إليهم، أو خوفًا مِن شَرِّهم، فهم في قُلوبِهم أحقَرُ شَيءٍ وأهوَنُه.

قال ابن عثيمين: لا يجوزُ تَسميةُ بعضِ الزُّهورِ بـ «عَبَّادِ الشَّمسِ»؛ لأنَّ الأشجارَ لا تَعبُدُ الشَّمسَ، إنَّما تَعبُدُ اللهَ عزَّ وجَلَّ، كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ، وإنما يُقال عبارةٌ أُخرى ليس فيها ذِكْرُ العبوديَّةِ.

المخلوقات كلها تخضع لله وتداوم على طاعته أفلا نكون معهم، حتى لا نكون من الذين حق عليهم العذاب لأنهم رفضوا الانكسار واستكبروا على المتفضل عليهم بالنعم.

قال ابن القيم: وَأَن العَبْد لَيْسَ لَهُ غير بَاب سيّده وفضله وإحسانه وَأَن سيّده إِن أهمله وتخلّى عَنهُ هلك وَلم يُؤوه أحد وَلم يعْطف عَلَيْهِ بل يضيع أعظم ضَيْعَة فتحت هَذَا الِاعْتِرَاف أَنِّي لَا غنى بِي عَنْك طرفَة عين وَلَيْسَ لي من أعوذ بِهِ وألوذ بِهِ غير سيّدي الَّذِي أَنا عَبده وَفِي ضمن ذَلِك الِاعْتِرَاف بِأَنَّهُ مربوب مدبّر مَأْمُور مَنْهِيّ إِنَّمَا يتصرّف بِحكم العبوديّة لَا بِحكم الِاخْتِيَار لنَفسِهِ.

العبادة مقام عظيم يشرف به العبد ولننظر في الكتاب المنظور هذه الآيات كونية، تقل لنا في كل لحظة لا تكن الجمادات والدواب ذاكرة شاكرة أكثر منك أدت حق الله بالخضوع والذل وانت لا زلت تتكبر ولا تؤدي حق المنعم.

وقال سُبحانَه: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) [النحل: 48، 49].

وقال تعالى:(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)[الإسراء:44]

قال السعدي: "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ" من حيوان ناطق، وغير ناطق، ومن أشجار، ونبات، وجامد، وحي وميت " إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ " بلسان الحال، ولسان المقال.

قال ابن كثير: أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغتكم وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد ".

كل الكون يسبح لله خاضعاً مستكيناً ذليلاً.

كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله "ولقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وهو يُؤْكَلُ".

وقال تعالى:(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) [النور: 41]

قال ابن كثير وقوله: (وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ) أي: في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة; ولهذا قال :(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) أي: كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل.

قال ابن عطية: في قوله تعالى: (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ)[الأنبياء: 79]، هو يسبح وكانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير، وقيل كان داود إذا فتر يسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق اليه.

قال أحد الصالحين: " أما يستحي أحدكم أن تكون دابته التي يركب، وثوبه الذي يلبس، أكثر ذكرا لله منه؟

العبوديّة على نوعين عبوديّة عامة وعبوديّة خاصة:

عبوديّة عامة (العبودية القهرية): عبودية جميع أهل السماوات والأرض صالحهم وطالحهم مؤمنهم وكافرهم، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾[مريم-89].

وعبوديّة خاصة (العبودية الإرادية): وهي عبارة عن طاعة الله تعالى ومحبته الإرادية واتباع أوامره، حيث قال الله عن أهل هذه الطاعة والاتباع: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف-68].

وأصل العبودية عبودية القلب وخضوعه، فإذا خضع القلب خضعت الجوارح، وإذا استكبر القلب استكبرت الجوارح.

فالواجب على من كان عبداً لله، أن يلتزم الذل والخضوع والإنابة إلى الله عز وجل وامتثال أمره، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجوء إليه، والاستعانة به والتوكل عليه.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾﴿19﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها: قال ابن الحيان: لَمَّا ذَكَر تعالى أهلَ السعادةِ وأهلَ الشقاوةِ؛ ذَكَر ما دار بينَهم مِن الخصومةِ في دينِه.

قال ابن عاشور: وأيضًا لَمَّا كان قَولُه تعالى: وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ الحج: ١٨ يُثيرُ سُؤالَ مَن يَسألُ عن بَعضِ تَفصيلِ صِفَةِ العَذابِ الذي حَقَّ على كثيرٍ مِنَ النَّاسِ الذين لم يَسجُدوا لله تعالى؛ جاءت هذه الجُملةُ لِتَفصيلِ ذلك.

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) أي: هذان فَريقانِ اختَلَفوا في شأنِ رَبِّهم وتوحيدِه ودينِه، وتعادَوْا وتحارَبوا: المؤمِنونَ والكافِرونَ؛ فالمؤمِنونَ يُريدونَ نُصرةَ دينِ اللهِ، وإعلاءَ كَلِمتِه، والكافِرونَ يُريدونَ إطفاءَ نُورِ الإيمانِ، وقَمْعَ الحَقِّ، وإظهارَ الباطِلِ. موسوعة التفسير

عن قَيسِ بنِ عَبَّادٍ، قال: (سَمِعْتُ أبا ذَرٍّ يُقسِمُ قَسَمًا: إنَّ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ إنَّها نَزَلت في الذين بَرَزوا يومَ بَدرٍ: حَمزةُ وعَلِيٌّ وعُبَيدةُ بنُ الحارِثِ، وعُتبَةُ وشَيبةُ ابنا ربيعةَ، والوليدُ بنُ عُتبةَ) رواه مسلم.

(فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ) أي: فالذين كَفَروا بالله فُصِّلَت لهم ثِيابٌ مِن نارٍ، فيَعُمُّ العذابُ أجسادَهم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ) [إبراهيم: 49، 50].

(يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ) أي: يُصَبُّ على رُؤوسِ الكُفَّارِ الماءُ المغْلَى الشَّديدُ الحَرارةِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ) [الدخان: 47، 48]

قال ابن عثيمين رحمه الله: حَذَّرَنا اللهُ تعالى في كتابِه مِن النَّارِ، وأخبَرَنا عن أنواعِ عَذابِها بما تتفَطَّرُ منه الأكبادُ، وتتفَجَّرُ منه القُلوبُ؛ حَذَّرَنا منها وأخبَرَنا عن أنواعِ عَذابِها؛ رحمةً بنا؛ لنزدادَ حَذَرًا وخَوفًا، ومن ذلك قولُه تعالى: (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ).

﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾﴿20﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها: قال أبو الحيان: لما ذكَرَ ما يُعذَّبُ به الجَسدُ ظاهِرُه وما يُصَبُّ على الرَّأسِ؛ ذكَرَ ما يَصِلُ إلى باطنِ المعذَّبِ.

(يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ) أي: يُذابُ بالحَميمِ المصبوبِ فَوقَ رُؤوسِ الكُفَّارِ ما في بُطونِهم -مِنَ اللَّحمِ والشَّحمِ، والأمعاءِ والأحشاءِ، والجلودُ. موسوعة التفسير

﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾﴿21﴾

(وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ) أي: وللكُفَّارِ في جهَنَّمَ مَرازِبُ ومَطارِقُ مِن حَديدٍ، تَضرِبُهم وتَدفَعُهم بها خَزَنةُ النَّارِ مِن الملائِكةِ. موسوعة التفسير

قال ابنُ جرير: (تَضرِبُ رُؤوسَهم بها الخَزَنةُ إذا أرادوا الخروجَ مِن النَّارِ، حتى تَرجِعَهم إليها).

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾﴿22﴾

(كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا) أي: كُلَّما أراد هؤلاءِ الكُفَّارُ أن يَخرُجوا مِنَ النَّارِ بسَبَبِ ما نالهم فيها مِنْ غَمٍّ، أُعيدُوا في النَّارِ مرَّةً أُخرى. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) [فاطر: 36، 37].

(وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) أي: ويُقالُ لهؤلاءِ الكافرينَ: ذوقوا عَذابَ النَّارِ المحرِقَ للقُلوبِ والأبدانِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) [السجدة: 20].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾﴿23﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما لأحَدِ الخَصْمَينِ، وهم الكافِرونَ؛ أتبَعَه ما للآخَرِ، وهم المؤمِنونَ

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أي: إنَّ اللهَ يُدخِلُ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ- جناتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين رحمه الله: في قول الله عزَّ وجلَّ: (الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، والعملُ الصالحُ مبنيٌّ على الإيمانِ، فعملٌ بلا إيمانٍ لا فائدةَ منه، فالمنافقون يعملون، ويذكرون الله، ويُصَلُّون، ويتصدَّقون، ولكن ليس عندَهم إيمانٌ؛ فلا ينفعُهم؛ ولهذا يقدِّمُ الله عزَّ وجلَّ الإيمانَ على العملِ الصالحِ.

وقال: والعملُ لا ينفعُ صاحبَه إلَّا إذا كان صالحًا؛ والعملُ الصالحُ هو: الخالصُ الصوابُ؛ أي: ما ابتُغِي به وجهُ الله، وكان على شريعةِ الله.

(يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا) أي: يُحَلِّي اللهُ المؤمنينَ في الجنَّةِ -رِجالًا ونساءً- أساوِرَ مِن ذَهَبٍ، ويُحلَّونَ فيها لُؤلؤًا. موسوعة التفسير

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعْتُ خليلي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((تَبلُغُ الحِليةُ (الزِّينةُ في الجنَّةِ) مِن المؤمِنِ حَيثُ يَبلُغُ الوُضوءُ)) رواه مسلم

(وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) أي: ولِباسُ المؤمنينَ في الجنَّةِ ثِيابٌ مِن حَريرٍ. موسوعة التفسير

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ الله عنه، أنَّه قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا تلبَسوا الحريرَ؛ فإنَّه مَن لَبِسَه في الدُّنيا، لم يَلبَسْه في الآخِرةِ)) رواه مسلم.

وعن حُذيفةَ بنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا تَلبَسوا الحريرَ ولا الدِّيباجَ، ولا تَشرَبوا في آنيةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ولا تأكُلوا في صِحافِها؛ فإنَّها لهم في الدُّنيا، ولنا في الآخِرةِ)) رواه البخاري

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾﴿24﴾

(وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ) أي: وهدى اللهُ المؤمنينَ إلى الأقوالِ الطيِّبةِ. موسوعة التفسير

قال ابنُ كثيرٍ أيضًا: (وقد قال بعضُ المفسِّرين في قولِه: وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ أي: القرآنِ. وقيل: لا إلهَ إلَّا اللهُ. وقيل: الأذكارُ المشروعةُ، ...).

السعديُّ، فقال: (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ الذي أفضلُه وأطيبُه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيِّبة التي فيها ذِكرُ الله، أو إحسانٌ إلى عباد الله).

(وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) أي: وهَدى المؤمنينَ إلى طريقِ اللهِ المحمودِ في أسمائِه وصِفاتِه. موسوعة التفسير

وقال السعديُّ: (وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ أي: الصراط المحمود؛ وذلك لأنَّ جميعَ الشرع محتوٍ على الحِكمةِ والحمدِ، وحُسن المأمور به، وقُبح المنهيِّ عنه، وهو الدِّين الذي لا إفراطَ فيه ولا تفريط، المشتمِل على العِلم النافع والعمَل الصالح).

والجنة لا يدخلها إلا من هداه الله إلى أطيب كلمة (لا إله إلا الله) كلمة التوحيد، أما من خبث قوله من المشركين فقد حرم الله عليه الجنة، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: 72]. وروى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ»[متفق عليه].